رمضان والعيد «أيام زمان»

د. وليد احمد السيد *

■■ يدمي القلب، وتدمع العين حزنا، لمغترِب راح يتناوشه حنين رمضان "أيام زمان". بصمت وببطء أدار شريط الذكريات نفسه دون سابق موعد أو إنذار. طافت الذكريات عبر البحار وحطت في قلب بيتنا الكبير، في حارتنا الصغيرة، في عمّون أو عمّان، مدينة الجبال السبعة، التي أضحت اليوم مدينة "العجائب" السبعة، نعرف منها وننكر، وننكر منها ما لا نعرف، ولا نعرف منها ما كنا نعرف! كانت توقظنا هزة رفيقة من يدي والدنا أو والدتنا لنشهد ساعة السحور، ساعة الزاد والبركة، ساعة توزيع أرزاق العباد، ساعة يتبين فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. ■■

■ لوحة للفنان علي فيصل المحضار

كانت قلوبنا غضة طرية حين تعوّدنا أن نصوم «أنصاف» أيام من رمضان

■ ■ ■

ذكريات ومعان وعلاقات حميمة سادت وتحورت ثم بادت، فشكرا للمدنية والعولمة

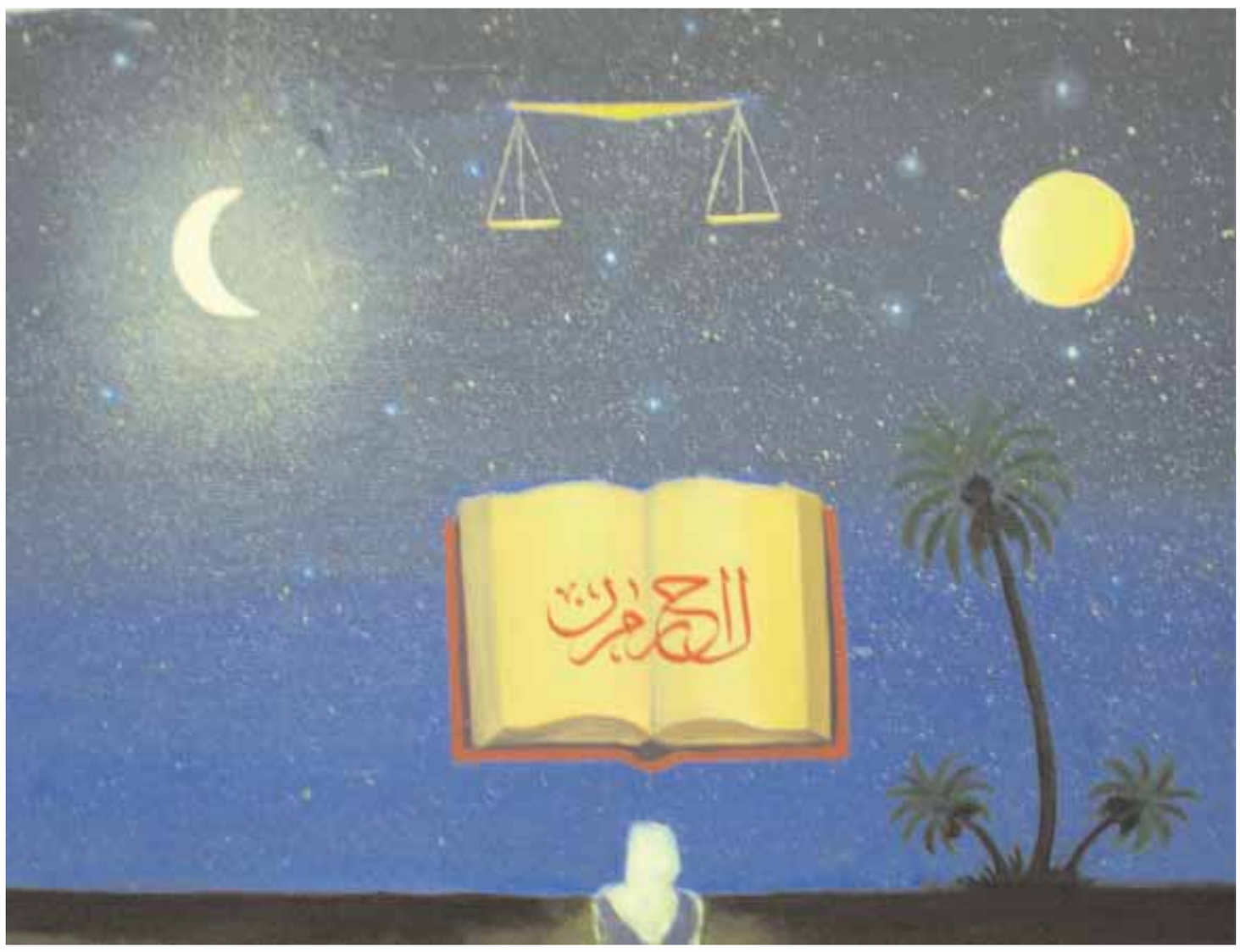

يمر "المسحّر" بحارتنا، ويتوارى طيفه سريعا، تحت جنح ظلام دامس، يبدد بعضه، على استحياء، مصباح الشارع الخافت، لكننا لم نكن نخطئ صوته الجهوري إذ يصيح:" يا نايم وحّد الدايم"! كان يتبع نداءه الخالد صوت طبلته التي كانت تصدح بدمدمات إيقاعية تحت طرقات قبضته القوية الصارمة. كنت ترانا نتسابق لاحتلال النافذة، كي نسارع باختلاس نظرة ملهوفة، عجلى، لطبلته "السحرية" الغامضة التي راحت توقظ من رقد أو غطّ في عميق السبات. كانت أبصارنا تتبع صوتها الذاوي في عتمة الليل المظلم. نعود فنتوسّد مجالسنا تطالعنا أطباق "السحور"، متوجسة ما هممنا به، وما تنطق به عيوننا، تفضح نيّتنا بالتزود لصوم نهار قائظ من زاد وشراب.

دأبنا صغارا أن نسابق عقارب الساعة وقت السحور، نسابقها فنسبقها، ونغالبها فنغلبها، فنحن صغيرنا من سبق ساعة "الإمساك" في رمضان واستعجلها وقت الإفطار! كنت ترانا نتجرع الماء سراعا، لنغسل جهاز الهضم من لقيمات، سارعت والدتنا بإعدادها لتستقوي بها أجسادنا الناحلة على جوع أيام آب، التي كانت تناكف بطولها عالي السحاب. ما كان يوقفنا عن الأكل إلا نداء "السمهوري" الملائكي الرخيم، مؤذنا، وموقظا ديك الصباح، "الله أكبر، الله أكبر!" ترانا نتسمّر مع النداء، ترفع الأيدي عن الأفواه، عن أطباق جفّت، وعن قصعات الفول والحمص والعسل واللبن التي "لُحوست". "الصلاة خير من النوم!"، نعم، صدقت وبررت يا "سمهوريّ" عمّون! يا من بشّرك وبشّر رفاقك المؤذّنين المصطفى بطول العنق يوم القيامة. ما كان أعذب صوتك الندي كل فجر يا "سمهوري"، يعبّق حاراتنا بالأذان، يصدح بالحق من علياء مئذنة "الأشرفية" عبر أثير "الإرسال" دون تلكؤ أو إبطاء. كم كنت تراك متجلّيا تراقص بحذاقة نغمات الأذان، وتختم النداء الخالد بالصلاة على خير الورى والأنام! صوتك الشجي كان ينادينا بالحق، يجيب صداه فضاء المدينة الساكن، ومن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ماذا صنعت بكم الأيام يا رفاق سحرنا؟ ولماذا تغيّبتم اليوم عن رمضان؟

ما أحلاك يا رمضان في حارات ودروب عمّان العتيقة! كانت قلوبنا غضة طرية حين تعوّدنا أن نصوم "أنصاف" أيام من رمضان بما كانت تقوى عليه أفئدتنا البضّة الظمئة ومعداتنا التي لم تكن تطيق أكثر من جوع سويعات. كنا نجمع هذه "الأنصاف" آخر الشهر مزهوين أننا شاركنا الكبار صومهم، ولمّا يجرِ علينا القلم أو نبلغ بعدُ الحلُم. قبل ثلاثين حولا، كبرنا وكبرت "أنصاف" الأيام لتصبح أياما طوالا عطشى تلظّت بحريق شمس آب اللهّاب. تجف حلوقنا آخر النهار إلا من ريق يكفي لكلمات متلعثمة قبيل "مدفع" الإفطار.

ترانا نعدّ ساعات اليوم الستة عشرة بالدقائق والثواني، ترنو أعناقنا مشرئبة لمقرئ القرآن قبل أذان الإفطار، نحسبه يعاكسنا وهو يرتل آيات الذكر الحكيم بتمهل ومطّ وتدبر. كنا نحسبه، مغتاظين، يمعن في معاكستنا، صغارا، فما أن ينهي سورة قصيرة ليبدأ بترتيل أخرى. استعجل يا شيخنا فلم يبق فينا من رمق أو طاقة لمدّ أيدينا لمائدة الإفطار، حيث الأطباق الشهية والقطايف والخضار!

كانت أياما مجيدة جميلة بنهارها وليلها، كنا نملؤها نهارا عملا دؤوبا ودرسا واجتهادا بالعبادة وخدمة أهلنا وقضاء حوائج الدار، نعرف "البقّال" والفوّال والخضريّ ومن نمرّ على أبوابهم من الجيران، نطالعهم ويبادروننا بالسؤال وبالسلام. كانوا يعرفوننا ويتقصدون معرفة من جهلوا منا، فأبو رياض "الفوّال"، رحمه الله، كان يبادرنا بالسؤال:" إبن مين إنت يا ولد!"، ويعرفني فيقول:" إنت إبن أبو نبيل، سلّم على أبيك". طوابير "القطايف" كانت كالمنارة يستدل بها التائه في زحمة الطريق. ليالي رمضان كان يجمّلها سمر العائلة وجلسات الأحاديث حين تتعالى الهمسات والضحكات والقفشات، يختمها نعاسة ورقدة خفيفة لا يبعثها إلا طبلة "المسحّر" تنبيها لمن داهمه النعاس أو غشيته سحابة من نوم أو إغفاءة ثقيلة ممزوجة "بشخير" كالخوار.

في ليلة القدر، ليلة السابع والعشرين، كانت العائلة تستعد لقرب العيد ورحيل شهر الصوم، كنا نسميه "العيد الصغير" لأن أيام عطلته كانت ثلاثة أيام، بينما كان عيد الأضحى الذي يتبعه بعد أكثر من شهرين بعد الحج كنا نسميه "العيد الكبير" لأن أيام عطلته أربعة أيام. بعد ليلة القدر تجتمع النسوة والبنات لعمل "الكعك" البيتي اللذيذ من اللوز والجوز والتمر. كنا نستمتع بالجلسات الاجتماعية الدافئة في ليالي رمضان حيث تجتمع العائلة في سكون أواخر ليالي رمضان. أما نهاية الشهر الفضيل، فكان يعلنها يوم "وقفة" العيد، ويمثل حدثا "شرائيا" تنزل فيه العائلات لوسط البلد، تنفق دنانيرها في أسواق "البخارية" وسوق "السكّر" وسوق "الحرامية"(!)، تشتري مستلزمات الضيافة والحلوى وما طاب من أصناف القهوة والمكسّرات.

يوم العيد الأول كان حدثا اجتماعيا وظاهرة فريدة! الجيران يتزاورون في اليوم الأول فيما يخصص اليومان التاليان للأقارب والأصدقاء. بعد صلاة الفجر تتعالى أصوات أهل الحي بالتكبير والتهليل، تبدأ باهتة وتعلو مع ارتفاع ضوء الفجر الوليد وبزوغ شمس يوم العيد. نلبس فرحين ثيابنا الجديدة التي توسّدناها قبل سويعات انتظارا لفرحة ننتظرها منذ السنة الفائتة. كنت ترانا نسلك طريقا نسلّم فيه على من نلقاه ممن نعرف من الجيران، كل يحثّ الخطى مسرعا وقد تأبط "سجادة" صلاته ليلحق مكانا في ساحة المدرسة حيث صلاة العيد تقام في العراء. يخطب الإمام ويهنئنا بالعيد، تراودنا خواطر الصبا وكيف سنقضي عطلة العيد. نعود من طريق آخر، نسير مع جدّي علي، رحمه الله، مع أخي وأبي، نقف قليلا للسلام والكلام، نتحرق شوقا للعودة للبيت والسلام على والدتي، تكسوها حلة العيد، بيدها "دلّة" القهوة السادة الساخنة، نسلم عليها ونقبّل يديها، وتسلم هي على جدّي، عمّها، وتقبّل يديه. ويمعن والدي في معاكستنا بالتأخر عنا لطرح السلام والتحية على الجيران. ننتظر "عيديّة" الكبار، نخرج فرحين للحارة، فقد بدأ "عيدنا".

أما "عيد الكبار" فكان مودة وسلاما وتراحما وصلة رحم وجيران. بعد العودة من صلاة العيد يدق الباب أحد الجيران. يزورنا أبو محمد، وبعد الضيافة والمعايدة ينطلق أبو محمد ووالدي لزيارة جارنا أبي العبد، ثم يخرج الثلاثة للمعايدة على جارنا أبي إسماعيل، ثم يخرج الأربعة للمعايدة على أبي خليل جار أبي إسماعيل، ثم يذهب الخمسة للمعايدة على جارنا أبي محمد المقدسي، وبعدها يذهبون للمعايدة جميعا على جارنا أبي عمر، والجميع بعدها يتوجهون إلى أبي محمد أبو شوشة، ثم أبي ماجد - رحمهم الله جميعا.

وما أن يحين موعد صلاة الظهر أو بعدها بقليل حتى تنتهي معايدة الجيران ليعود والدي للبيت ليجد والدتي أعدت طعام الغداء الشهي من اللحم "والمنسف". في المساء تجلس العائلة تتسامر احتفالا بالعيد. نجلس مع جدّي، نسجل أحاديثنا ونستمع إليها وتعلو الضحكات والنكات! آه ما أحلاك يا عيد "أيام زمان"، حيث الأهل والأحبة والخلاّن في اجتماع ووئام!

اليومان الثاني والثالث، هما يوما المعايدة والسلام على الأقارب والأصدقاء وزملاء العمل. ما كان هناك تليفون أرضي ولا "سماوي"، سلكي أو لاسلكي، لم تكن هناك من حاجة للاختباء وراء "رسالة قصيرة" أو "مكالمة مفقودة" غير مردود عليها أو "جوّال". كانت الزيارات حميمة، عفو الخاطر، دون موعد مسبق، يدق بابك جارك، وربما ينبئك بقدومه ولده الصغير في أحسن الأحوال. لا نفاق ولا دجل ولا مظاهر ولا "تذرّع" بوسائل عولمة الاتصال، تلك التي قتلت العلاقات الاجتماعية تحت ذريعة التطور والحداثة وغدر الزمان! بعد عشر سنين، تبدل الحال، تغيرت النفوس، ضاقت المعيشة، وتبددت الصورة الحالمة القديمة لليالي رمضان.

نام "المسحّر" وشبع نوما أغلب الليل، غاب ليلا وظهر نهار العيد يجمع "البركات" النقدية من متبرعي الحارة! تغيرت الحارة، انتقل شيوخها ومسنّوها للرفيق الأعلى - بعضهم في رمضان، وآخرون في شعبان. تبدلت الوجوه، جيل جديد لا يعرف أصلا ولا تراثا طاف بالحارة والمكان، يلعبون الكرة ولا يعرفون لكبير أي احترام. تراك تمر بالحي وترد السلام على من بقي من كبار الحارة، بعضهم يسمعك ولا يراك وقد وهن بصره، وانحنى ظهره، وبعضهم لا يكاد يعرفك فقد بلغ من العمر أرذله! أصحاب المحلات التجارية تغيروا، بل تغيرت بعض النفوس! إن رددت السلام على أحدهم ثم مررت على آخر ورددت السلام، قد لا يرد عليك لأنك رددت السلام على "البقال" الأول!

في يوم آخر ترد على الأول ولا يرد عليك ويشيح بوجهه غاضبا لأنه لمحك قبل يومين تشتري من بقالة الآخر، فأنت خائن غادر تهدد تجارته بالكساد! النفوس اعتراها صدأ "المادّة" وجشع النقود.

تزاور الجيران يوم العيد اختفى وتحول إلى مصافحة عابرة إن صادفك في الطريق وكان لا مفر من الوقوف. وإن كان يقود سيارته اختبأ خلف المقود وأشاح عنك ذات اليمين أو الشمال! زيارة العيد في اليوم الأول للجيران تقلصت وحل محلها زيارة المحارم من الأخوات المتزوجات والعمات والخالات، تكون بعدها عودة للبيت لاستقبال من يؤدون الواجب الشرعي بصلة الأرحام.

ذكريات ومعان وتراث اجتماعي وعلاقات حميمة سادت وتحورت ثم بادت - فشكرا للمدنية والعولمة وما جاءتنا به! أم ترانا نظلم عولمة وجدت نفوسا طائعة تقبلت وتذرعت بتغير الأحوال والزمان. عدت لمدينتي بعد غيبة سنوات، مررت بحارتي العتيقة غريبا تماما، فلا الدار دار ولا الجيران جيران! مررت ملتفتا في الحي للأولاد الذي يلعبون أملا في نظرة معرفة أو مودة لطرح السلام دون جدوى. فهم مشغولون بلعب الكرة ولا يعيرونك التفاتا - وعليك أن تنتبه لكراتهم الطائشة. غياب الود الاجتماعي تدريجيا منذ مطلع التسعينيات تطور مؤخرا للقضاء تماما على الزيارات الاجتماعية. في السنة الماضية، انحسرت الزيارات لحدود المحارم وصلة الرحم لمن "يؤمن بالله واليوم الآخر"، أما "غير المؤمنين" فاقتصرت مجاملاتهم على رسائل قصيرة بالهاتف النقال. أصبح هذا عنوان العيد في المدينة، لا مدينة عمان فحسب، بل مدن عربية كما تشي بها وسائل الإعلام.

يرحم الله أياما مجيدة عشناها أطفالا وصغارا، أضحت ذكريات بائدة تعيش في أفئدتنا ووجداننا، في زمن حاضر غلبت فيه المادة والفقر والطمع والأزمات الاقتصادية التي دكت دعائم المجتمع العربي دكا. ورحم الله يوما بكيت فيه فلما صرت في غيره بكيت عليه! وسقى الله أيامك المجيدة يا رمضان!

فما دهاك اليوم يا رمضان ومن قبلك رجب وشعبان ومن بعدك شوال وذو القعدة والحجة وغيّر أحوال المكان والإنسان! وأين ذهبت بهجة الصوم والسحور والنوم والقيام؟ أهي الرفقة وأنس العائلة والجوار، أم تراها هي الترنيمات الرمضانية الشذيّة التي تعبق أجواء المكان وتشنّف الآذان؟ أم لعله "مسحّر" الأمس الوفيّ الذي لم يكن يرجو درهما سوى حمدا وثوابا من ربه وشفاعة النبي العدنان؟ أتراها هي العولمة وأثير الإعلام، التي غيّرت وبدلت أم هم العباد وجشع "الحيتان"؟ أم هي حداثة العصر والزمان التي تطوي تراث الأصالة وعبق الذكرى مخلفة دموعا وترحما وحنينا لماض يؤول للنسيان؟ ■

* باحث وأكاديمي - لندن
sayedw03@yahoo.co.uk